الفصل الخامس

منهج الشيخ طنطاوى
فى تفسير القرآن

لعل من أكثر من ركّز على كونيات القرآن فى العصر الحديث أستاذنا الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره «الجواهر» فلقد توسع فى مجال التفسير العلمى ، وقرر أن القرآن يحوى كل العلوم ، وأنه يشير إلى جميع مسائلها ، ولعله تأثر بأستاذه الإمام الغزالى الذى ألف كتابه «جواهر القرآن» وخصص منه باباً يبين فيه كيف تشعبت العلوم كلها من القرآن . ويريد بالعلوم – العلوم الدينية والدنيوية واللغوية ، والعلوم التى كانت واندرست ، والعلوم التى هى كائنة ولا يعرفها الناس ، والعلوم التى ستكون فيما بعد ؛ ثم يعقب بأن هذه العلوم – ما عددناها وما لم نعدها – ليست أوائلها خارجة عن القرآن ؛ فإن جميعها مغترفة من بحر واحد ، من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه لا ساحل له ، إن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ! وعرض فى بيان أفعال الله ، والحاجة فى فهمها – إلى مختلف العلوم كفعل الشفاء والمرض لا يفهمان إلا بالطب ، وفعله فى تقدير الشمس والقمر ومنازلها بحسبان لا يعرف إلا بالهيئة ، إلى أن يشير أخيرا إلى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها[1] .

ولعل شيخنا «طنطاوى» تأثر كذلك بآخرين من قدامى المفسرين من أمثال : الفخر الرازى صاحب «مفاتيح الغيب» المشتهر «بالتفسيرالكبير» ، والبيضاوى صاحب التفسير المعروف بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ؛ ونظام الدين القُمِى النيسابورى صاحب التفسير المعروف بـ «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» ؛ والإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى صاحب كتاب «البرهان فى علوم

(١) انظر (جواهر القرآن) للغزالى ص ٣١/٣٤ .

القرآن » ؛ وجلال الدين السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » ، وفى كتابه « الإكليل فى استنباط التنزيل » ، وفى كتابه « معترك الأقران فى إعجاز القرآن » ؛ والراغب ، والأصفهانى ، وأبى بكر بن العربى . . .

ولقد كان تفسير الشيخ طنطاوى - الجواهر - تفسيراً عجيباً حقا ، تنقل فيه بين فنون من العلوم والمعارف ، يعجب القارئ لإلمامه بها على تفاوت ما بينها . وكان عملاً رائعا لم يظفر التاريخ الإسلامى منذ قرون خلت بمثله . وأما المنهج الذى انتهجه فى هذا التفسير فلن يصل إليه إلا الأفذاذ من أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة .

وكان الشيخ طنطاوى عالماً علماً ، وعاملاً مخلصاً ، ينتمى إلى جيل من الرواد الذين امتازوا بما لم يسبقهم إليه غيرهم : سعة أفق ، وبسطة فى العلم ، وشمول نظرة ، وإحاطة وقدرة على الاحتواء ، ورسوخ فى الإيمان ، يضاف إلى ذلك كله الموهبة التى منحه الله إياها . .

وفى مقدمة تفسيره يتحدث عن البواعث التى دفعته إلى تأليف هذا التفسير ، ويقول : « أما بعد » فإنى خلقت مغرماً بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات ؛ ثم إنى لما تأملت الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء وبعض جلّة العلماء عن تلك المعانى معرضين وعن التفرج بها ساهين لاهين ؛ فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم ، وما أودعت من الغرائب ، فأخذت أؤلف كتبا لذلك شتى : كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصع ، وجمال العالم ، والنظام والإسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير ذلك من الرسائل والكتب ؛ ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق . . »[1]

وكان مسلكه فى هذا عن طريق النظر فى آيات الكتاب الكريم والتدبر فى معانيه على أساس ماكان يتلقاه من إلهام ، وماكان يراه بعين بصيرته ؛ فهو يصرح بأن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمر به بطريق الإلهام ، وأيقن أن له شأنا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقى المستضعفين فى الأرض .[2]

وسمّى الشيخ طنطاوى تفسيره « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » ، لأنه يجعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل ، والجوهرة يتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية وهكذا . .

وطريقته فى تفسير القرآن أن يبدأ بالتفسير اللفظى للآيات التى يعرض لها ، ثم يتلوه بالشروح

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم الجزء الأول ص ٢ .

(٢) المرجع نفسه جزء أول ص ٣ .

والإيضاح والكشف : أى أنه يشرع متوسعاً فى الفنون العصرية المتنوعة .[١]

غير أن بعض العلماء فى هذا العصر لم يرض عن هذا اللون من التفسير ، ولم يستسغ أن يُشرح به كتاب الله تعالى ، وراح يرد هذه الفكرة على أهلها ، ويتناولها بالنقد والتفنيد ، وينعى على من تأثروا فى تفسيرهم بنزعاتهم العلمية . ويعد هذا صارفاً يصرف الإنسان عن القرآن وهديه ، ويخرج به عن قصده ، وينحرف به عن هدفه . .

ونجد هذه المعارضة فى كثير من المحاورات والاعتراضات التى وجهت إلى الشيخ طنطاوى ، وذكرها لنا فى تفسيره ، وكثيرا ما نجده يخاطب الأمة الإسلامية وعلماءها خطاباً يدل على الإشفاق والغيرة والإخلاص . وإننا نراه يلوم المسلمين لأنهم اهتموا واعتنوا بالفقه واختلاف الفقهاء وآيات الأحكام قليلة جدًّا ، ولم يهتموا بالعلوم ، والآيات الدالة عليها كثيرة جدًّا فى القرآن ، فهو يقول : «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علم الفقه ، وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟» ويقول : «لماذا كثر التأليف فى علم الفقه وقلّ جدًّا فى علوم الكائنات التى لا تخلوا منها سورة ، بل هى تبلغ (٧٥٠) آية صريحة ؟ وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة ويجهلوا علماً آياته كثيرة جدًّا ؟»[٢] .

وإذا نحن رجعنا لرأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذا اللون من التفسير نراه يقول ، وفيه تأييد لمنهج الشيخ طنطاوى جوهرى :

«للتفسير مراتب أدناها : أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير ، وهذه هى التى قلنا : إنها متيسرة لكل أحد (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ٥٤ : ١٧)»[٣] .

ثم يقول : «وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور» . . ومن تلك الأمور التى نوّه عنها «علم أحوال البشر ؛ فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب ، وبيّن فيه ما لم يبينه فى غيره : بيَّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية فى البشر ، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيَرها الموافقة لسننه فيها ؛ فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشئ اختلاف أحوالهم : من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم

---

(١) انظر «اتجاهات التفسير فى العصر الحديث» للدكتور عبد السلام المحتسب ص ٢٧٢ طبعة بيروت ١٩٧٣ .

(٢) الجواهر ، الجزء ٢٥ ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) «تفسير المنار» جزء أول ص ١٩ (الهيئة المصرية العامة) ١٩٧٢ .

بأحوال العالم الكبير علويه وسفليّه ؛ ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه»[١] .

ويقول الأستاذ الإمام : «أنا لا أعقل كيف يمكن أى أحد أن يفسِّر قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ٢ : ٢١٣) الآية - وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ؟ وكيف تفرقوا ؟ . وما معنى تلك الوحدة التى كان عليها ؟ . وهل كانت نافعة أو ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم ؟ . .

«أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة»[٢] .

فهل خرج الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره عن هذا الخط ؟

وهل خرج تفسيره «الجواهر» عن هذا المعنى ؟

يقول الأستاذ الإمام : «إن التفسير قسمان : أحدهما جاف مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيراً ؛ وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرهما ؛ والآخر هو التفسير الذى قلنا : إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية وهو الذى يَسْتجمعُ تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسّر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ؛ ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الأوصاف ؛ فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن . . وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير»[٣]

نقول : وهذا هو المنحى الذى نحاه هو نفسه الشيخ طنطاوى فى تفسيره بل وزاد عليه فهو يقول : «يا أمة الإسلام ، آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها . . هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور نور الإسلام ، هذا زمان رقيه يا ليت شعرى ! لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ؟

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢ .

ولكنى أقول : الحمد لله ، الحمد لله ، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض ، لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر . . إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام ؛ فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

وهكذا نجد أستاذنا الفيلسوف الإسلامى الشيخ طنطاوى جوهرى يفسر آيات القرآن تفسيراً علميا يقوم على نظريات حديثة ، وعلوم جديدة ، لم يكن للعرب عهد بها من قبل ؛ فهو يقود المفسرين الذين يأتون من بعده إلى أفضل طرق التفسير ، كما فاق من سبقه فى ذلك ؛ فأنت ترى الفلك والطب والهندسة والسياسة والاجتماع وكل علم ما فى السماء والأرض ، وكل ما انتهت إليه الثقافة فى مختلف عصورها من أول عهود الثقافة إلى الآن ، من عهد « أفلاطون » إلى عهد « كانط » - كل أولئك مذكور فى هذا التفسير بأجلى بيان ، موضح بأعظم توضيح ؛ ولا غرو فالأستاذ يفيض علماً ونوراً ، لأنهما يصعدان عن علم عامل بما يقول ، وعن عقيدة هى بقية من بقايا السلف الصالح المختار .

ومن العجيب أن كل من تصدى لتفسير القرآن تفسيراً علميا فى هذا الزمان لا يذكر الرائد الأول فى هذا المجال وهو الشيخ طنطاوى ، ولا تفسيره العظيم الذى نحن بصدده ؛ لذا نرى من واجبنا أن نستحث الهيئات الإسلامية لعل واحدة منها - كمجمع البحوث الإسلامية أو غيره - تتبنى إعادة طبع هذا التفسير الجليل الذى فاق سواه بما جمع من شتى النواحى العلمية والكونية ؛ لينتفع به المسلمون فى جميع بقاع العالم .

ومن المفيد أن نشير هنا إلى مقال قيم كريم منصف نشره الكاتب الفاضل الأستاذ رجاء النقاش فى هذا الصدد بمجلة « المصور » بتاريخ ٣ من نوفمبر عام ١٩٧٢ بعنوان « تفسير للقرآن بالخرائط والصور » جاء فيه :

« . . ولقد كانت أبرز وأغرب محاولة فى مجال إزالة التناقض بين القرآن والعلم هى المحاولة التى قدمها الشيخ طنطاوى جوهرى أحد علماء الدين البارزين وواحد من المفكرين النابغين فى هذا العصر برغم أنه لم يحظ بما يستحق من الدراسة والاهتمام لا فى حياته ولا بعد وفاته . وقد أصدر تفسيراً كاملاً للقرآن سنة ١٩٢٣ فى ستة وعشرين جزءاً وسماه « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » .

وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى للقرآن أعجب تفسير قرآنى عرفه العقل العربى على الإطلاق ؛

---

(١) تفسير الجواهر - جزء ثالث ص ١٩ .

فالتفسير كله ينادى بأن القرآن يطلب من الإنسان أن يتوسع فى شتى أنواع المعرفة وأن ينظر فى كل العلوم نظرة عميقة ؛ ولذلك استعان الشيخ طنطاوى فى تفسيره للقرآن بصفحات كاملة من صور التشريح والحيوانات والنباتات والخرائط ، كل ذلك ليثبت أن القرآن يدعم الروح العلمية ويؤكدها ، ويدعو إليها دعوة عميقة وصريحة . ويقول الشيخ طنطاوى جوهرى فى مقال له مبرراً اتجاهه فى النظر إلى القرآن : «إن قراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم العصرية ودراسة الحيوان والنبات والإنسان أجل عبادة ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون وما أحاطت بهم عاديات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثان ! »

« وهكذا يرى الشيخ طنطاوى جوهرى أن الإسلام يدعو إلى العلم ويؤكد الروح العلمية ، وأن القرون الماضية قد أدت إلى تدهور المسلمين بسبب « قصور علمائهم » وما أصابهم من تأخر فكرى كبير . ويقدم لنا الشيخ طنطاوى تفسيره للقرآن - على أساس منهج محدد ، فآيات القرآن تدفعنا إلى التفكير والتأمل ، وهو فى تفسيره للقرآن - يفكر ويتأمل بوحى من هذه الآيات ، وهو لا يقول أبداً بأن النظريات العلمية جاءت فى القرآن الكريم ، ولكنه يقول : إن اكتشاف قوانين الطبيعة وأسرار الكون أمران يحث عليهما القرآن ، ويدعو إليهما دعوة صريحة قوية ، وهو يقف أمام آيات القرآن ويربط بينهما وبين عجائب الكون التى اكتشفها العلم الحديث دون أن يقول أبداً : إن هذه الاكتشافات بنصها فى القرآن . » .

ويسرد الأستاذ رجاء النقاش بعض أمثلة من هذا التفسير ثم يقول : « . . هذه نماذج من تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقراءة هذا التفسير ولا شك تجربة فكرية ممتعة ورائعة ، وكنت أتمنى أن يعاد نشر هذا التفسير اللامع ليكون بين أيدى القراء المعاصرين بصورة سهلة ميسرة ؛ فهذا التفسير ولا شك يساعد المتدينين جميعا على أن تكون لديهم حاسة علمية وشغف بالنظريات العلمية والكشوفات والمخترعات المختلفة ؛ كما أن هذا التفسير يساعد أصحاب النظرة العلمية المجردة على أن تكون لديهم مشاعر دينية عميقة حتى من خلال دراساتهم العلمية المتخصصة ؛ فهو تفسير يستخرج « الروح العلمية » من الدين ، ويستخرج « الروح الدينية » من العلم !

« إن الحافز الأساسى للشيخ طنطاوى جوهرى فى هذا التفسير هو إزالة أى وهم بأن هناك تناقضاً بين العلم والقرآن ، أو أن القرآن يمكن أن يبرر للمسلمين تخلفهم العلمى أو قصورهم عن اللحاق بأحدث النظريات العلمية والمساهمة فى الكشف والاختراع والعمل على الإضافة إلى ما وصلت إليه البشرية فى هذا المجال . وتفسير الشيخ طنطاوى يفيض بالحماس للعلم الحديث ، بل يجعل طلب العلوم العصرية واجبا دينيا أساساً فى حياة المسلمين .

« ونظرة الشيخ طنطاوى للقرآن نظرة جريئة وجديدة وفريدة فى مجال التفكير الدينى المعاصر ، وفى مجال النظر إلى القرآن وتفسيره .

والحقيقة أننا إذا أردنا أن نحكم على هذا التفسير العظيم فإننا نجد فيه ميزة أساساً هى الابتعاد تماماً عن سذاجة القائلين بأن كل النظريات العلمية وردت فى القرآن ؛ ولذلك فكتاب الشيخ طنطاوى أشبه بتأملات علمية واسعة « من وحى القرآن » أكثر منه تفسيراً مباشراً لآياته وسوره ؛ فهو يتوقف عند آيات القرآن ويستوحى منها رحلته بين سائر العلوم العصرية .

وكتاب الشيخ طنطاوى من ناحية أخرى يؤكد فى نفوس المسلمين وعقولهم احترام الروح العلمية ، ويدعوهم إلى الاهتمام الواسع العريض بالعلم ، ويرفع هذا الاهتمام إلى درجة يقول عنها : إن التأمل فى العلوم العصرية والاهتمام بها هو أجل عبادة .

« وهذه الروح الدينية العلمية المتحمسة المشتعلة إنما هى ولا شك روح أصيلة ونبيلة وعالية ، وهى ما يحتاج إليه العقل العربى أشد الاحتياج .

« وإذا كان هناك من ملاحظة على هذا التفسير الجليل فهى أنه يفرض على الباحث فى القرآن أن يجمع فى عقله جميع فروع العلوم العصرية ، فلابد أن يكون عالماً فى الكيمياء والطبيعة والطب والحيوان والنبات وعلوم الجيولوجيا والبحار والهندسة وما إلى ذلك ، وهو أمر صعب ، بالإضافة إلى أنه يثير الاعتراض حتى من الناحية العلمية ؛ فالعلم الحديث أساسه التخصص ، وليس فى العلم الحديث معنى للعلم الشامل الكامل الذى يجمع كل شىء ويحيط بكل شىء .

« ولكنَّ المبرر الأساسَ الذى يقف وراء منهج الشيخ طنطاوى جوهرى هو أنه كان يهدف أصلاً إلى إثارة شغف المسلمين بالعلوم العصرية ، وإلى إزالة وهم التناقض بين القرآن والعلم ، وإلى التأكيد بأن الإسلام إنما هو دين يدعو إلى العلم - بمعناه العصرى - ويطلبه ويفرضه على كل مسلم ، وإلى أنه لا خوف على الإيمان بالله من العلم ، ولا خوف على العقيدة الدينية من النظريات العلمية المختلفة مهما اكتشفت ومهما وصلت من نتائج ، بل إن ذلك كله فى رأى ذلك الشيخ النابغ العظيم طنطاوى جوهرى عامل من العوامل المساعدة على الإيمان لا على الشك والإلحاد ! » .

* * *

وإلى هنا ينتهى مقال الأستاذ رجاء النقاش الذى كان له أثر كبير فى العقول الواعية والأذهان المتفتحة .

ثم يأتى الأستاذ أحمد عطية الله - وهو عالم فاضل وكاتب كبير له آثار قلمية مجيدة منها « القاموس السياسى » فى ١٤٤٠٠ صفحة من الحجم الكبير ، و « القاموس الإسلامى » فى خمسة مجلدات

كبيرة . ومن معاصرى الشيخ طنطاوى ؛ ليضيف إلى ذلك بعض آرائه وملاحظاته فيقول : [١]

« . . والمطلع على هذا التفسير كما جاء فى مقال الأستاذ النقاش يتبين مدى انفعال مؤلفه بالتأملات كما يقول المقال « تهدف أصلاً إلى إثارة شغف المسلمين بالعلوم العصرية وإلى إزالة وهم التناقض بين القرآن والعلم »

« ويلاحظ الكاتب الفاضل أن هذا التفسير ينبغى أن ينتهى إلى حد الاستثارة بما تضمنه القرآن الكريم من إشارات إلى ظواهر الكون لا أن يستطرد المؤلف فيقحم علوما بأسرها فى ثنايا تفسيره تمثل مكتبة متكاملة »

ويعلق الأستاذ أحمد عطية الله على هذه الملاحظة بأن هناك حقيقة وراء هذه الحقيقة لعلها مازالت مجهولة هى :

« كانت مؤلفات طنطاوى جوهرى من الكتب الذائعة الانتشار فى الشرق الأقصى ولاسيما فى الهند والتركستان وجزر الهند الشرقية « إندونيسيا » والملايو ، وكان اسمه يقرن بحكيم الإسلام ، ومن ناحية أخرى كانت سياسة الحكومة الهولندية بخاصة تقضى بحظر استيراد الكتب العربية باستثناء الكتب الدينية ؛ لهذا كان من الضرورى لتصدير هذه المعارف الحديثة أن تتضمنها كتب غير محظور دخولها إلى جاوه وسومطرة وغيرهما من مستعمراتها الأسيوية فمن ثم جاء هذا التوسيع فى تفسير الجواهر من مجرد تأملات كونية إلى إدماج كتب بأسرها فى صلب التفسير شملت جميع العلوم العصرية من طبيعية واجتماعية مع توضيحها بالخرائط والرسوم والصور الفوتوغرافية ؛ لهذا السبب كان تفسير الجواهر الذى صدرت منه حتى الآن عدة طبعات من التفاسير المجهولة تقريبا فى البلاد العربية على حين كان ولا يزال من التفاسير المتداولة فى دول الشرق الأقصى ولا سيما بعد أن ترجم إلى اللغة الأوربية » .

* * *

« وبعد ، فإذا حدَّثك إنسان بأنه رأى شجرة تحمل من الثمر الشهى والزهر الندى مما لا يوجد فى كل أنواع الشجر من ثمر حلو الطعم طيب المذاق - فتذكر القرآن ، وتذكر أن السورة منه سميت سورة لأنها تضم ألوانا من الفنون والعلوم كما يضم السور مدينة سعيدة يجد أهلها فيها كل ما يشبع حاجاتهم ويمتع حياتهم ، أو كما يضم السور بستانا ناضر الزهر ناضج الثمر موشى بمختلف روائع الألوان . فإذا نظرت إلى سورة منفردة ومجتمعة فاذكر قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وقوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء

---

(١) من مقال له فى مجلة «المصور» بتاريخ ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٧٢ .

شهيد » ، وقوله تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) صدق الله العظيم » [١]

* * *

بقى علينا الآن أن نقدم للقارئ الكريم فيما يلى بعض نماذج من تفسير « الجواهر » تبين منهج المؤلف فيه :

نماذج من تفسير الجواهر :

« لقد كفر الذين قالو إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملكُ من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا . ولله ملك السموات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير » [٢]

يعتمد الشيخ طنطاوى فى تفسير هذه الآية على ما بينه علم الفلك من أن الأرض التى نسكنها كالعدم بعد أن كشفوا عما فى الفضاء من أجرام عظيمة هى الكواكب والمجرات ؛ فكل مجرة مركبة من مئات الملايين من الكواكب ، ومجرتنا التى منها شمسنا فيها نجوم نسبة شمسنا إليها ضئيلة جدًّا ، حتى إن الجوزاء حجمها كحجم الجوهر الفرد (ومعلوم أنه لا يُرى) لصار حجم الكون الذى يرى بالتلسكوب مثل حجم الأرض الحالى ، ولصار حجم الكون كله على ما يقضى به مذهب « إينشتين » ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، إذن أرضنا على مقتضى تقريب هؤلاء العلماء عالم لا قيمة له ، صغير جدًّا . وعلى قدر صغره يكون صغر سكانه وأخلاقهم ، فانظر لجهل هذا الإنسان الذى أظهره العلم الحديث ، وأشار له القرآن ، وأعجب لنظام الآية فى سورة « المائدة » حكم الله بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . لماذا كفروا ؟ لأن الأرض ومن عليها لا قيمة لها بالنسبة لمخلوقاتنا ، فأنا قادر أن أهلك هذا الإله الذى ادعيتموه وأهلك أمه ، وأهلك من فى الأرض جميعا . . فكيف أتخذ ولدا لى فى عالم لا قيمة له ؟ ألم تروا أنى أملك السموات والأرض وأنا على كل شىء قدير؟ فإذا كانت أرضكم أصبحت بالنسبة للعوالم أشبه بالجوهر الفرد بالنسبة لألف مليون أرض فقد انقلب الوضع ؛ فبعد أن كان أهل الأرض مغترين بأرضهم ظانين هذه الكواكب كلها ما هى إلا سُرُجٌ وُضعت فى السماء لتضىء لأهل الأرض أصبحت الأرض اليوم ملحقة بالعدم ، وسكانها أضعف منها وأقل حيلة ! إذن سكان هذه الأرض قد اغتروا بأنفسهم حين جعلوا لله ولداً فى أرضهم

---

(١) عن مقال للشيخ عبد الرحيم فوده بعنوان «علوم القرآن» بدائرة معارف الشعب .

(٢) المائدة : (١٧) .

الفانية الضعيفة المعدومة فى جانب مخلوقاتى . هذا كله يفهم من قوله « ولله ملك السموات والأرض » [١]

وعندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة آل عمران « ألم » نجده يعقد بحثاً طويلاً عنوانه « الأسرار الكيميائية ، فى الحروف الهجائية ، للأمم الإسلامية ، فى أوائل السور القرآنية » ، وفيه يقول :

« انظر رعاك الله ، تأمل . . يقول الله : ا . ل . م - طس - حم - وهكذا يقول لنا : أيها الناس ، إن الحروف الهجائية ، إليها تحلل الكلمات اللغوية ؛ فما من لغة فى الأرض إلاّ أرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية ، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية ، شرقية وغربية ، فلا صرف ، ولا إملاء ، ولا اشتقاق إلاّ بتحليل الكلمات إلى حروفها ، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلاّ بتحليلها ، وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون .

« ولا جرم أن العلوم قسمان : لغوية وغير لغوية : فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعليم ؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية . فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلاّ بتحليلها إلى أصولها فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية ؟ فهى أوْلى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية . لا يعرف الحساب إلاّ بمعرفة بسائط الأعداد ، ولا الهندسة إلاّ بعد علم البسائط والمقدمات ، ولا علوم الكيمياء إلاّ بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها ، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم » [٢] .

* * *

تفسير سورة النور*

بسم الله الرحمن الرحيم

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

بعد أن بين الله من الآداب والأحكام الشرعية فى مخالفة هذه الآداب حفظاً للمجتمع مما يقوض

---

(١) تفسير الجواهر - الجزء ١١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) المرجع نفسه - الجزء الثانى ص ١٠ - ١١ .

* الجزء ١٢ من الجواهر (جمادى الآخرة ١٣٤٧ هـ) .

دعائمه ، وتقويته بما يكثر النسل . . عقب على ذلك بما هو أعلى وأجل من العلوم والمعارف بقوله تعالى : «الله نور السموات والأرض» . فكأنه تعالى يقول : أيها الناس ، ارفعوا رءوسكم ، وانظروا إلى جمالى ونورى فى شمسى وفى قمرى وفى النبات والزهر والنهر . . فلم أخلقكم لهذه الأرض خالدين ، وإنما لتعيشوا آمنين ما تخلقتم بهذه الأخلاق ثم تسعدوا فيها ما تطلعتم لآفاق الجمال فى كونى العظيم . وقد جعل الله هذا المثل نبراساً للعلوم المشرقة وضربه بما نشاهده فى مساجدنا من قناديل النور المشرقة فى رحاب المسجد . . كذلك نور الله المشرق فى عجائب الخلق . وقد فسّره العلماء بأوجه هى : تمثيل لمحمد ﷺ ، تمثيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، تمثيل لكل مؤمن ، تمثيل للقوى الدرّاكة فى الإنسان ؛ تمثيل للقوى العاملة فى الإنسان ، تمثيل للقرآن الكريم .

وهذا المثل اللفظى الذى جعل مُشَاكِلاً لعجائب أجسامنا وعقولنا وإدراكنا أشبه بما نصبه الله فى الأرض من الأجسام الإنسانية ؛ إذ أحكم صنعها ، ونظم أعضاءها وخلق وسوى وقدّر وأحكم فجعلها العلماء تمثيلاً لأمور وهى :

كالسفينة تركبها الروح فى بحر الحياة الدنيا حتى الموت .

كالدار فيها السكان المختلفون من القوى الدرّاكة والحس وأعضاء الحركة والهضم ، وأعضاء الخيال والغاذية إلخ . .

كاللوح والنفس تنقش فيها وترسم وتتعلم حتى إذا عملت ما تطيق رمت باللوح وراحت إلى ربها ، كما يقرأ الطفل فى اللوح حتى إذا تعلم ألقاه عنه جانباً .

كالمدينة والروح ملكها والأعضاء منازلها .

«كالدكان» والروح صاحبه والأعضاء الباطنة متاعها والأعمال تجارتها والربح والخسارة فى آخرتها . هكذا مثل قنديل المسجد :

الأول : نور محمد ﷺ :

المشكاة صدره ، والزجاجة قلبه ، والمصباح فيه النبوة . توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة ، يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضئ ولو لم تمسسه نار .

الثانى : كيان محمد ﷺ :

المشكاة جوف محمد ﷺ : الزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذى جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودى ولا نصرانى - توقد من شجرة مباركة (وهو إبراهيم عليه السلام) - نور على نور - نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد ﷺ . وهما متقاربان .

الثالث : إبراهيم والأنبياء :

المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . سمى الله محمداً مصباحاً كما سماه سراجاً منيراً ، والشجرة المباركة إبراهيم ؛ لأن أكثر الأنبياء من نسله ، لا شرقية ولا غربية - يعنى إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ؛ لأن اليهود تصلى إلى الغرب ، والنصارى تصلى إلى الشرق .

الرابع : كل مؤمن : المشكاة نفس المؤمن ، والزجاجة قلبه ، والمصباح الإيمان فى قلبه ، والقرآن يوقد من شجرة مباركة هى شجرة الإخلاص لله وحده . وهذا أعم .

الخامس : قوى الإنسان الدرّاكة :

تمثيل لقوى الإنسان الدرّاكة الخمس التى بها المعاش والمعاد ، وهى الحساسة (الحواس الخمس) ؛ والخيالية التى تحفظ صور المحسوسات لتعرضها على القوة العاقلة متى شاءت ؛ ثم العاقلة التى تدرك الحقائق الكلية ؛ ثم القوة القدسية التى تتجلى فيها لوائح الغيب الخاصة بالأنبياء ؛ فهذه مثل لها بالمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت : فالمشكاة (الكوة) قد شابهتها محل الحواس التى قد وضعت فيها ووجهها الظاهر ، ولا تدرك ما وراءها كالعين فإنها لا تدرك ما خلفها . فإذا أدرك المحسوسات وصورت صارت إلى القوة الخيالية ، فإذا أغمضنا أعيننا فإننا ندرك فى أنفسنا تلك الصور التى رأيناها : فهذه القوة التى حفظت تلك الصور هى الخيالية فهى كالزجاجة تقبل صور المدركات وتضبطها ، ثم إن قوتنا المفكرة أكبر من الخيالية ؛ فإن هذه القوة الكامنة فينا تتصرف فى الصور التى فى قوة الخيال فتحكم عليها بالحسن والقبح ؛ فهى كالمصباح ، فأما القوة العاقلة فهى كالشجرة المباركة لأنها تؤدى إلى ثمرات لا نهاية لها . وزيتونها ولا شرقية ولا غربية ؛ لأنها تجرد المعانى عن الصور وتخترع القضايا الكلية التى لا تخص شيئاً بعينه فلا تتقيد بالجزئيات . فأما الزيت فهى كالقوة القدسية الخاصة بالأنبياء فهى لشدة صفائها تكاد تضىء بالمعارف من غير تعلم ولا تفكر

السادس : القوة العاقلة :

إن القوة العاقلة فى بدء أمرها خالية من العلوم ، ثم نقش فيها العلوم بالحواس الخمس ؛ فتصير كالزجاجة متلألئة فى نفسها قابلة للأنوار ، ثم تعرف العلوم بفكرها كالشجرة الزيتونة أو بالحدس كالزيت ، أو بقوة قدسية كالتى يكاد زيتها يضىء ، فإنها تكاد تعلم وإن لم تتصل بها العلوم . فإن اتصلت بها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت فهى كالمصباح ، فإذا استحضرتها فهى نور على نور .

السابع : قلب المؤمن :

قال ابن عباس : «هذا نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ؛ فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه ، كذلك يكاد قلب المؤمن يعلم بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور» .

وسأحاول بتوفيق الله عرض وجه آخر .

وهذه الوجوه وغيرها مما تتفتق عنه العقول الراجحة تصلح لها الآية جميعها ، وتلك خصيصة القرآن الكريم حيث يتضمن من المعانى ما يصلح لها جميعها فى وقت واحد . . فكأن الله يقول : كما أنرتم مساجدكم بالقناديل - كذلك أنرت قلوبكم وقلوب الأنبياء وعقولكم وحواسكم وخيالكم ، وإنى نور السموات والأرض : أنرت الكون المادى بأجرامه ، وأنرت الحياة بالأنبياء وإشراق بصائرهم ؛ فنورى فى كل الوجود نور على نور . .

وجه آخر : نور الله فى المادة :

إن الكون المادى مكون من مجرات ، والمجرات مكونة من النجوم ، والنجوم منها الفردى ، والثنائى والثربى والمجموعات المتقاربة ، ثم إن النجوم المضيئة بذاتها شموس باهرة تتجاذب وتدور حول نفسها كما تدور بعضها حول بعض فى تجاذب متعادل بين الكبير منها والصغير ، وهى كلها فى داخل دورتين للمجرة الكبرى : دورة حول نفسها ودورة حول مركز آخر بعيد لا ندرى أحياناً أين هو . . ؟

تلك شيمة الكون المادى كله فى مجراته ونجومه ، ثم إن للنجوم - لبعضها - كواكب سيارة انفصلت عنها أو عن نجم آخر قريب أو بعيد قائم أو تفتت وتشعع فى الفضاء . وهذه الكواكب نفسها تدور حول نفسها ، وتدور حول نجم بالذات . . كمجموعتنا الشمسية تماماً ، فكواكبها التسع السيارة لها دورة حول ذاتها ولها دورة حول مصدر الضياء فيها وهو الشمس .

هذا فى الكون المادى فى لبناته الكبرى ، فلندخل إلى بناء الذرة وأصغر لبنة فى الكون المادى : لقد ظنوها منذ أجيال قبل الميلاد منذ أرسطو وفلاسفة اليونان واعتبروها الجوهر الفرد الذى لا ينقسم على نفسه ، ظنوها بناءً مصمتاً ، ثم جاء القرآن الكريم يسترعى الأنظار ، فذكر أن الذرة ليست أصغر شىء ، بل ثمة ما هو أصغر منها . قال تعالى فى معرض التدليل على قدرته ، والتوجيه للأنظار والعقول للتفكير : «لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ فى كتاب مبين» . (سبأ : ٣) .

«وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ فى كتاب مبين» (يونس : ٦١)

ومع ذلك لم تبحث العقول عن الشيء الذى هو أصغر من الذرة ، ثم جاء العلم فى القرن العشرين ليقول : إن بناء الذرة يتكون من نواة - بروتون - شحنة كهربية موجبة . وألكترون دوار حول البروتون - شحنة سالبة . والنواة تعتبر $\frac{1}{50}$ من الذرة أو أقل ؛ فانظروا إلى هذا الذى دق عن الذرة التى لا ترى بأكبر المناظر المكبرة حتى كان أقل منها بخمسين ضعفاً أو يزيد .

ثم ماذا فى هذا ؟ . . إن النواة الموجبة هى الشحنة الموجبة المضيئة بذاتها كالشمس والنجم فى المجموعات الشمسية والنجمية ثم يحيط بها شحنة سالبة فهى كالكوكب بالنسبة للمجموعات الشمسية . أما الشحنة الموجبة فإنها كالشمس مضيئة بذاتها ، والألكترون يستمد ضوءه من النواة كالكوكب .

إننا إذن أمام وجهين متماثلين بين أصغر حجر فى بناء الكون المادى ، وأكبر حجر بين الذرة والمجرة . حتى قال عالم فلكى : إن القوانين التى تعمل فى المجرة هى نفس قوانين الذرة . وذلك دليل وحدة الكون ووحدة الصانع الأعظم . وهذا مثال واضح لنور الله فى الأرض والكون المادى . فالألكترون وبقية الشحنات تمثل الكواكب وتمثل الزجاجة . والنواة تمثل الشمس وتمثل المصباح ، فى المثل المضروب لنور الله فى القرآن الكريم .

فنور الله فى الأرض هو ذاك . ونوره فى السموات ربما كان فى الحقيقة - والله أعلم - يعنى به نور الله فى عالم الروح والملائكة ، فنوره فى الناس ما مر من التوجيهات السبعة ، ونوره فى الجن له نظير بالإنس ، ونوره فى الملائكة له نظير بنور الأنبياء بين الناس ، فالله نور الكون المادى ، والكون العقلى ، والكون الروحى والإنسى والجنى والملائكى : أى الله نور الوجود كله . وقربه الله بمثل قنديل المسجد الذى يرونه ويراه الناس فى مساجدهم فى كل مكان . وكأن الله يقول : إياكم أن يصدكم ويصرفكم فقه الشرع عن فقه الكون المشرق ! ! انظروا إلى سمواتى : فيها شموسها سُرُج وعقولكم سرج وحواسكم سرج وقواكم الداخلية سرج ، ودينكم سراج ، وأنبياؤكم سرج ، والمؤمنون سرج ، وقد أضأت كل شيء بأنوارى وعلومى ظاهراً وباطناً ، ومساجدكم فيها من لا تشغله تجارة ولا بيع عن ذكرى ، فلا يشغلكم علوم الفقه بالبيع والشراء والمعاملات عن النظر فى عجائب صنعى وكونى فى المادة والعقل والروح وفى الأرض وفى السماء !

لذلك تراه سبحانه وتعالى وقد ذكر الخمر والميسر والحيض والنفاس والإيمان والطلاق والنفقة والعدة والرضاع والخطبة ، قال بعد ذلك : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . أى لا يشغلكم ذلك عن هذا الجمال والروعة وذلك مجال الرقى الحق . . وهنا لم يذكر الصلاة بل ذكر هدف الصلاة الأعلى حيث عبر بالنور الذى عم السموات والأرض ، وما نور السراج إلاّ أثر من آثار النور فى

الشمس ، فالزيت بعض عصارة الثمار فى الأشجار والنبات ، وهى بدورها بعض عناصر الأرض وموادها . مادة ساذجة لا صورة فيها ، والمادة قبس من نور العقول المجردة فاضت من ذلك العالم الأقدس بالنظام الأكمل .

وجه آخر للمؤلف :

ذكر الله تعالى نور السموات والأرض بالنجوم والكواكب ، ومثّل بالسراج الذى هو أثر من آثار النور العام مثل به لما هو أتم وأكمل ، وهو نور العقول والبصائر . ولذلك توضيح :

العقل عند الحكماء :

العقل عند الحكماء كأرسطو وأفلاطون وسقراط والفارابى وابن سينا والغزالى والرازى وابن رشد وأضرابهم : إما عقل بالقوة ؛ أو بالفعل ؛ أو مستفاد ؛ أو عقل فعال . وإليك مثالاً موضحاً :

ابن الملك الشاب الذكى ملك بالقوة . فإن ولاّه أبوه ولاية فهو ملك بالفعل وبالقوة ، فإن تولى الملك بعد أبيه فهو ملك بالفعل . فإن أحسن إدارة ملكه وأشرف عليه إشرافاً كبيراً وبصيراً فهو ملك مستفاد . ونظيره فى العقول : الطفل العادى مستعد لفهم ما حوله ، وما يزال يحاول فهو حينئذ عاقل بالقوة ، فإن اكتسب معرفة فهو عاقل بالفعل لما يفهم وبالقوة لما هو مستعد له . فإن اكتسب معرفة كبيرة فهو صاحب عقل مستفاد : أى أن العقول الإنسانية فى أول أمرها مستعدة لاقتناص الصور من هذه المادة ؛ فكل إنسان ينظر ويسمع ويبصر ويشم ويذوق ويلمس وتلك صفات المادة وصورها ، وصور المادة أثواب لها . وقد عدّها الحكماء (٣٦) ثوباً كالألوان والأصوات ، إلخ . . وأثواب المادة خلق العقل ليكتسى بها ويلبسها منذ الطفولة الباكرة حتى يصل إلى مقعد الحكماء .

العقل المستفاد والعقل الفعّال :

والعقل المستفاد عند الإنسان – فى الحكماء والأنبياء – نظيره فى عالم الروح – ما وراء المادة – العقل الفعّال ، ذلك العقل الذى لم يقتنص معارفه من المادة ، بل علومه مغروسة فيه منذ وجد بفطرته ، وقد اكتسبت المادة صورها من أثر ذلك العقل الفعال وفق ما قام به وارتسم فيه . وهذه العلوم كلية فيه ، وإنما تنقسم فى المادة وتتوزع فى أثوابها المختلفة وأحجار بنائها . وعقولنا كذلك تجمع من المادة معارف غير منقسمة ولا موزعة لتنزهها عن الانقسام .

وهذا العقل الفعال نسبته إلى عقولنا كنسبة الشمس لأبصارنا ؛ فإذا كانت أبصارنا مستعدة للإبصار ، أى لو أشرق نور فى الهواء وانعكس من الأشياء على قرنية العين وعدستها ، فصور الأشياء على شبكيتها – أدركته وفهمته أعصاب المخ بالعين : فكذلك العقل الفعال إذا أشرق على عقولنا

إشراقاً معنويا كإشراق الشمس فى الهواء والعين فإن المعانى تتمثل فى عقولنا كما رسمت الصور فى القوة الباصرة - فالعقل الفعال شمس بالنسبة للعقول التى هى عيون استقبال لضوئه ، وإشراق العقل الفعال كإشراق الشمس الحسى ، وحصول الصور فى العقول كحصول المرئيات فى أبصارنا : فإذا حصلت المعقولات فى نفوسنا واستنتجنا بها علوماً أخر فإنه يقال : إن العقل عندنا بالفعل بالنسبة لما عرفناه ، وبالقوة لما لا نعرفه ، فإذا ارتسمت المعارف فى نفوسنا يقال : إنها عندنا بالفعل ثم يكون العقل المستفاد : ثم إن العقل بالقوة كأنه مادة للعقل بالفعل . والعقل بالفعل كأنه مادة للعقل المستفاد وهو كمادة للعقل الفعال وإدراكنا من الجزئيات فى الصور والمحسوسات إلى الكليات فى المعارف ، وأما العقل الفعال فيتنزل عن الكليات إلى الجزئيات بلا زمان .

الصورة والمادة والمعانى والعقول :

لا تظنن أن المعانى تنقش فى العقول كنقش الصور فى المادة . والصورة - كما هو معلوم - غير المادة فنقش الخاتم غير معدن الخاتم . . كالثوب غير الإنسان . أما المعانى فإنها نفس عقولنا : كالصورة فى المرآة عين المصَوَّر ؛ إذ لا مادة ثمة . فكل معنى عقلناه فهو نسيج عقولنا : فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، فاقتبسنا من المادة معلومات كونت عقولنا ، ولا شىء وراء عقولنا ، وليست المعارف صفات لعقولنا ، بل هى نفس العقول .

ومعناه أن عقولنا تعتبر : عقلاً ، وعاقلاً ومعقولاً . . فإذا تعقل الإنسان نفسه فالعقل هو نفس المعقول ، وهو العاقل . فإذا نحن اكتسبنا عقولاً مستفادة من المادة وصورها والتصرف فيها لنذهب بها إلى عالم آخر - فأجدر بنا أن نقول : إن ثمة عوالم لم تكتسب علومها من المادة بل هى فيها كامنة ، ثم هى تشرف على إكساب عقولنا هذه العلوم عن طريق إشرافه على المادة وتصويرها وتحرير قوانينها . ومعلوم أن المادة هى محور معلوماتنا هنا : أى أن مثال القنديل فى المسجد ونور الكواكب ضربه الله لأنوار القلوب ، وإلى ما ينقش فى العقول من المعانى وما تزال تنتقل من معنى لآخر ، ومن مقام لمقام حتى تصل فى الفهم عن عالم الملائكة ذوات العلوم الكامنة بالطبيعة .

ولعمرى لضياء القنديل لحيطان وجدران ، أما الحقائق فنور البصائر والأبصار . «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» (الحج : ٤٦) .

قطرة ماء فى تفسير «الله نور السموات والأرض» .

نظرية النور والمادة :

إن روعة الخلق تتجلى فى آفاق السموات والأرض . والقرآن دلّ كثيراً على ذلك . وهناك روعة أخرى للخلق تغيب عن الكثيرين :

إن كل ذرة فى أرض أو قمر أو شمس أو كوكب أو نجم أو سديم أو ماء أو غاز . . إن كل ذرة فى الكون المادى من النور ؛ فما بالك بالسموات وما فيها من كائنات وعوالم ؟ وصدق الله العظيم : « الله نور السموات والأرض » .

يقول العلامة هنشو الفلكى الطبيعى بمجلة هاربر الأمريكية فى سنة ١٩٢٦ م : إن بعض قطرات الماء تصل إلى ثلث سنتيمتر ، فلوكبرناها إلى ١٥ سم لارتجفت وظهرت عليها ألوان قوس قزح ، فلو كبرناها ١٧٠ متراً لزال القوس وظهر الماء فقط ، فلو كبرناها ١٠٠ ميل لظهرت جواهر الماء الصغيرة ويصبح كل جوهر فى حجم (الجوزة) وقطره ٢,٥ مم ، ومعناه أن كل قسم لا يقسم لأنه جوهر فيحلل فقط للعناصر الأصلية لا للماء . ونعنى به «أكسوجين وأيدروجين» متحدين تماماً بنسبة ١ : ٢ وحينئذ لا يمكن فصلها إلاّ بالكيمياء .

فلنكبرها إلى مائة ألف ميل فيصبح قطر الجوهر الفرد منها ٤٠ قدماً تقريباً ، ويفيدنا هذا التكبير فقط فى رؤية كل من الأكسوجين فى الوسط والأيدروجين ذرتين عن يمين وشمال ، وهذه الذرات لا تنقسم وإنما تتكون من شىء آخر سنعرفه . وجوهر الأكسوجين فى الوسط أشبه بقنديل فى المركز تحيط به ست دوائر تبعد عنه ٢٠ قدماً . وهذه الدوائر فى سطحه . وذرتا الأيدروجين دائرتان من النور قطر كل منهما سبع أقدام تدوران حول مركز النور .

ولكى نرى كل ذرة منهما فلنكبرهما بعد ذلك ألف مرة فتصبح أكبر من فلك الأرض حول الشمس ، ويصبح قطر الجوهر المائى (ذرة الماء) ثمانية أميال ، ونرى دوائر النور السابقة فى الأكسوجين والأيدروجين خطوطاً وهمية من النور ترسمها نقطة صغيرة من النور تدور حول مركزها فى الثانية الواحدة ٦ آلاف مليون مليون دورة . وهذه النقطة الدائرة هى (الكهربا السالبة) ومركزها النورى يسمونه (الكهربا الموجبة) . وهذه الدوائر التى رسمتها النقطة فى (سج ويد) ما هى إلاّ كالدوائر التى ترسمها شعلة نحركها نحن بسرعة ، فترسم دائرة فى مرأى العين فقط ، أما الواقع فهى الشعلة فقط . .

فالجوهر المائى : سج ا كـ يد ٢ . وكل منهما نقطة من النور الموجبة من حوله دائرة من النور السالب ، وبالدوران السريع صار كل منهما غازاً ، وبالاتحاد صارا ذرة ماء . والأصل فيهما النور . بقى أن نعرف أن عدد جواهر الماء الفردة = ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٥٠٠ جوهر : أى ذرة ماء متحدة فيها سج ١ : يد٢ وأعجب من ذلك أن كل ذرة منهما مجوفة وفيها من البعد بين الكهربا الموجبة أو النواة والسالبة (الألكترون) كما بين الشمس والأرض وذلك فى جميع الذرات –

فى العناصر المادية التى وصلوا فى معرفتها إلى ٩٢ عنصراً أصيلاً تتكون منها جميع المواد فى الأرض والكواكب والنجوم والهواء بينها .

نتيجة :

إذن فجميع عالمنا المادى مكون من النور . نقطة نور تدور فى الفضاء حول مركز نور فترسم دوائر من النور ، فقطرة الماء مثلاً أشبه بالمشكاة ، وكذلك كل ذرة . ودوائر الأنوار الحادثة داخلها بسرعة جَرْى النقط النورية فى عناصرها أشبه بزجاجة المصباح ، والمصباح أشبه بالنقطة النورية فى المركز (البروتون أو النواة) .

وبذلك ظهرت المشكاة والزجاجة والمصباح ، وبقى ما يوقد منه المصباح فجعله الله تعالى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . وربما أفاد ذلك الوصف : أنها ليست من عالمنا الأرضى ، بل من العالم الإلهى الذى لا شرق له ولا غرب ولا زمان ولا مكان .

وبذلك رأينا قطرة الماء نوراً بل قطعة الحجر وحفنة التراب . وما هذا إلاّ شرارة وشعلة مقدسة من أنوار الحق فى كل الوجود . وعلينا لندرك هذا النور أن نفتح أبواب عقولنا لتدرك هذا الجمال الذى سيصبح رائعاً جليلاً واضحاً عندما نصفو أو عندما نودع هذا الكون المادى المحتجب فى نفسه . وحينئذ نكون بتوفيق الله تعالى وفضله – فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وندرك بعدئذ تفسير قوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» حتى فى الذرة فيها موجب وسالب . كالذكر والأنثى . أو هما زوجان متناظران ومكتملان . . وكذلك فى جميع الكائنات النباتية والحيوانية . وقد ظهر ذلك فى كل الديانات تقريباً .

وفى الفارسية مثلاً : إن الله خلق أصلين هما الخير والشر ، ولا يقوم العالم إلاّ بهما ، ثم جاء المخرفون فجعلوا للخير إلهاً وللشر إلهاً ، وهكذا طبع العدد «زوج وفرد» . والحساب جمع وتفريق . والعالم مركب من التنافر والمحبة . وكلها ترجع للآية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . حتى ذهب فيثاغورس إلى القول بأن العالم : عدد ونغم . ومن فلاسفة اليونان من قال : كراهة ومحبة .

ولاتنس صلة هذه الآية بقوله تعالى فى أول سورة الأنعام : «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدلون» وقوله فى سورة النمل : ٨٨ : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون»

فليراجع تفسيرها أيضاً فى الجواهر . .